الملاحظات

ميرزا علي السيّاح

لقد أوقعت خيانةُ ميرزا يحيى لعهد حضرة الباب أمرَ الله في أزمة كبرى كان من شأنها وجسامتها أن شقّت وحدة جامعة المؤمنين وتضامنهم مما جلب عذابًا وآلامًا لا حد لها لحضرة بهاءالله وأحبائه. وبدون الإلمام بمعرفة تامة بكل ما قام به ميرزا يحيى وأعوانه من مكائد ومؤامرات وأعمال منكرة، فلا يمكن استيعاب مدى الأذى الذي ألحقوه بحضرة بهاءالله وأمره. لكن ليس في وسع هذا المجلد أن يضم وصفًا كاملاً لتأثيرهم الخبيث وأعمالهم الدنيئة. لعل يكفي القول هنا بأن عصيان ميرزا يحيى قد سبّب لحضرة بهاءالله من الألم والكرب ما لا يقارن به من الاضطهاد الذي عاناه على يد أعدائه من خارج جماعة البهائيين.

بقي حضرة بهاءالله في بيت رضا بيك حوالي عام واحد ثم انتقل إلى بيت "أمر الله" حيث أقام فيه قرابة ثلاثة أشهر. في كل لوح تقريبًا نزل في أدرنة في هذه الفترة، يشير حضرته إلى خيانة ميرزا يحيى وغدره وما ألحقه من ضرر بأمر الله.

أحد ألواحه المنزلة في هذه الفترة هو "لوح السَيّاح" الذي نزل بحق الملاّ آدي گُزال، المعروف باسم ميرزا علي السيّاح، وهو لقب منحه إياه حضرة الباب. كان من مواطني مراغة، وحصل على تعليم فيها كفقيه (ملاّ). كان قد فاز بلقاء حضرة الباب في أوائل أيام ظهوره، فاعترف بمقامه وعُدّ من أتباعه. ما كاد يُقبل على دعوة حضرة الباب، حتى صار في خدمة مولاه بجدّ وتفان عظيمين. عندما حُبس حضرة الباب في قلعتيّ ماه كو وچهريق، كرس السيّاح جهوده في الخدمة كمراسل أمين لحضرته. حظي في تلك الفترة بالتشرف بمحضره عدة مرات في هاتين القلعتين وكان من قادة صحابته، فكان ينطلق من هناك حاملاً رسائل حضرة الباب إلى شتى أطراف إيران، ويعود برسائل أتباعه إلى حضرته. في إحدى المناسبات حمل معه ألواحًا بخط يد حضرة الباب وعلبة أقلام جميلة كهدية من حضرة الباب إلى القدوس.

من جملة خدماته الخالدة لحضرة الباب أثناء الفترة التي عصف بها الحزن إثر وصول نبأ استشهاد عدة أبطال في مازندران، كانت الزيارة التي قام بها، نيابة عن حضرته للبقعة التي سقط فيها شهداء الطبرسي.[1] في هذا الخصوص يروي النبيل ما يلي:

(1) انظر "مطالع الأنوار.

وما كاد[2] يتمم نشر فضائل وتأبين الشهداء الذين خلدوا اسمهم في الدفاع عن القلعة حتى نادى في يوم عاشوراء[3] الملاّ آدي گُزال أحد أحباء مراغة الذي كان يشتغل في خدمته مدة شهرين بدلاً من السيد حسن أخ السيد حسين عزيز. وقابله بكل لطف ولقّبه بالسيّاح وسلّم إليه ألواح الزيارة التي دونها في ذكرى شهداء الطبرسي وأمره أن يزور تلك البقعة وحرضه قائلاً (قم وسِر بانقطاع تام وفي لباس السائح إلى مازندران وهناك زُر بالنيابة عني المكان الذي يحوي أجساد هؤلاء الأحباء الذين طبعوا بخاتم دمائهم لوح منيتهم لأجل أمري وما أن تقترب من نواحي تلك الأرض المقدسة اخلع نعليك واركع احترامًا لذكراهم ونادهم بأسمائهم ودُر حول مقامهم بخضوع. ثم أرجع لي قبضة من تلك الأرض المقدسة التي تغطي بقايا أجساد أحبائي القدوس والملاّ حسين لتكون تذكارًا لزيارتك. واجتهد أن ترجع في يوم عيد النوروز حتى نحتفل سويًا بهذا العيد وهو العيد الوحيد الذي ربما لا أحضر خلافه في هذا العالم).

وقام السيّاح للزيارة في مازندران ونفذ تعليماته بالدقة. ووصل إلى المقر المعهود في أول يوم من ربيع الأول سنة ١٢٦٦هـ (١٥ كانون الثاني سنة ١٨٥٠م) وفي اليوم التاسع من ذلك الشهر (٢٣ كانون الثاني سنة ١٨٥٠م)، وهو الذكرى

([2]) حضرة الباب.

([3]) يوم العاشر من محرم، ذكرى استشهاد الإمام الحسين، والذي صادف في تلك السنة يوم 26 كانون الأول عام 1849م.

الأولى لاستشهاد الملاّ حسين قام بالزيارة وأتم المأمورية التي عهد له بها ثم سافر توًا إلى طهران.

وسمعت من آقا كليم الذي قابل السيّاح في منزل حضرة بهاءالله في طهران يحكي الرواية الآتية: "كان الشتاء أتى بقضّه وقضيضه حين عاد السيّاح من حجّه ليقابل حضرة بهاءالله. ورغمًا عن نزول الثلج واشتداد البرد في شتاء قارس، كان يرتدي عباءة كالدراويش وثيابه رثة وحافي القدمين أشعث الشعر وقد اشتعل قلبه من حرارة الزيارة. وما كاد السيد يحيى الدارابي الملقب بالوحيد الذي كان ضيفًا عند حضرة بهاءالله يعلم بمجيء السيّاح من قلعة الطبرسي، حتى تناسى العظمة والمركز الذي يشغله رجل مثله وأسرع إليه وارتمى تحت أقدامه وأمسك بقدميه اللتين كانتا ملوثتين بالطين للركبة، وحضنهما بين ذراعيه وأخذ يقبّلهما بكل شوق. وكنت أندهش في ذلك اليوم من العناية التي كان حضرة بهاءالله يظهرها لوحيد. وكانت طريقة محادثتي معه لم تدع شكًا في أنه في يوم من الأيام سيمتاز وحيد بأعمال لا تقل عظمة وإجلالاً عن أعمال الشهداء الخالدة في قلعة الطبرسي."

وكان السيّاح قد أمضى بضعة أيام في ذلك المنزل. ولم يكن يشاهد تلك القوة التي كانت مخبوءة في مضيفه كما شاهدها وحيد. ومع أنه كان موضع عناية حضرة بهاءالله عناية فائقة، ولكن لم يفقه معنى لهذه البركات التي كانت تنزل

عليه، وكنت سمعت منه عن أعماله وسياحته في فماغوستا. ومما قاله 'إن حضرة بهاءالله أغدقني بكرمه أمّا وحيد فمع علو مقامه كان يفضلني على نفسه أمام مضيفه. وفي يوم حضوري جاء وقبّل قدميّ ودهشت من تلك المقابلة التي أسداها إليّ. ولو أني كنت غريقًا في بحر الكرم واللطف إلاّ أني في تلك الأيام ما كنت أقدّر ذلك المقام الذي كان حضرة بهاءالله يتمتع به ولم أتمكن من الإطلاع ولو جزئيًا على طبيعة الرسالة التي كان سيضطلع بها.'

بعد استشهاد حضرة الباب، أمضى السيّاح برهة قصيرة في آذربيجان. توجّه بعدها إلى كربلاء حيث أقام فيها فترة طويلة نسبيًا. في أثناء استجوابه في الآستانة عام ١٨٦٨م،[4] صرّح بأنه كان مقيمًا بكربلاء لمدة اثني عشر عامًا. تزوج ابنة الشيخ حسن الزنوزي، أحد تلاميذ حضرة الباب البارزين والذي كان حضرة الباب قد بشره وأكد له لقاءه قريبًا بـ"رجعة الحسين"[5] بكربلاء. وكان السيّاح أيضًا قد وعد من قبل حضرة الباب بالفوز بمحضر "من يظهره الله".

([4]) انظر الصفحتين 321-322.

([5]) استنادًا لنبوءات شيعة الإسلام فإن بعد مجيء القائم يظهر الإمام الحسين. وحضرة بهاءالله اسمه حسين علي. في صيف 1851م التقى حضرة بهاءالله بالشيخ حسن في كربلاء وأسرّ له بمقامه. راجع المجلد الأول، الصفحتين 219-220. فمنذ ذاك الوقت عرف الشيخ حسن مقام حضرته وأقرّ بأنه "من يظهره الله".

سافر السيّاح إلى أدرنة في أوائل عام ١٢٨٤هـ (١٨٦٧م) وهناك تشرف بمحضر حضرة بهاءالله وأخبر المؤمنين في أحد مجالسهم كيف تحقق له ما وعده حضرة الباب من لقائه بـ"من يظهره الله". ثم كتب ذلك وأرسله إلى ميرزا يحيى. كان من أخلص أتباع حضرة بهاءالله. بعد مرور ثلاثة أشهر[6] على إقامته بأدرنة، أرسله حضرته مع مشكين قلم[7] وجمشيد الكرجي إلى الآستانة في مهمة خاصة. ستأتي الإشارة فيما بعد إلى طبيعة تلك المهمة وسجنهم في تلك المدينة.

يكشف حضرة بهاءالله في "لوح السيّاح" عن مجد مقامه، مقرًّا بأنه جمال القدم الذي بأمره بُدئت الموجودات، ومؤكدًا بأنه هو الذي يتوجّه إليه العباد ويتشبثون بأذيال فضله ولو أنهم غفلوا عن عرفانه والاعتراف بظهوره البديع. يشير إلى ملأ "البيان" الذين أنكروه واعترضوا على أمره، ويسميهم "أهل الفساد" و"أصحاب الشياطين"، مذكرًا إياهم بأنه قد عاشرهم لعدة سنين لكنه ستر بهاءه عن أنظارهم لئلا يعرفه أحد، إلاّ أنهم قاموا ضده بعداء عظيم. عندئذ كشف جمال طلعته وأشرق جمال وجهه على الكائنات. يعلن أن يوم الافتتان قد حان ووُضِع الميزان الذي فيه توزن أعمال الناس بالعدل. يعلن فيه لأهل العالم بأنهم لو أرادوا أن يسمعوا صوت الله فليستمعوا إلى طلاوة نغماته، وإن أرادوا مشاهدة وجه الله فلينظروا إلى جمال طلعته. لكنه يحذّرهم

([6]) عند استجوابه في الآستانة، أقر "السيّاح" بأنه أقام في أدرنة مدة ثلاثة أشهر.

([7]) انظر المجلد الأول، الصفحتين 28-29.

من أنهم لن يبلغوا ذلك ما لم يطهروا قلوبهم من كل الظنون والأوهام منقطعين عن العالم وما فيه.[8]

في هذا اللوح يتنبأ حضرة بهاءالله، تلميحًا بالاستعارة، عن إبعاده إلى منفاه الأخير في عكاء مشيرًا إليها بـ"وادي النبيل".[9] يستعمل لغة الرمز في وصف وصوله لتلك المدينة بهذه الكلمات:

"وجدنا قومًا استقبلونا بوجوه عز دريًّا... وكان بأيديهم أعلام النصر... إذًا نادى المناد فسوف يبعث الله من يُدخل الناس في ظلل هذه الأعلام."

في هذا اللوح فقرات تلقي الضوء على شدة الامتحانات التي تواجه المؤمن وهو يطرق سبيل الإيمان. في إشارة لملأ "البيان"، يذكر حضرة بهاءالله بعض الذين كانوا من أشد الناس تقوى ووُهبوا بصيرة غاية في الحدة، مع ذلك عندما مرت عليهم نسائم ظهوره، بدوا كأنهم محجوبين عنه بحجاب. رغم أنه عاشرهم لمدة طويلة وكشف عن بهائه لأعينهم وينسب قصورهم هذا للغرور والتعلق بالنفس الأنانية ويعرب عن حزنه لأن تقواهم وأعمالهم أصبحت سببًا للكِبَر والغرور ومنعتهم عن فضل الله.

([8]) انظر المجلد الأول، الصفحات 198–200.

([9]) القيمة العددية لـ"نبيل" تساوي القيمة العددية لـ"عكاء".

يتكرر موضوع الانقطاع في ألواح عديدة. بل يمكن القول ربما هناك بين وصايا حضرة بهاءالله القليل، إن وجدت، مما أكد عليها بهذا النحو مثل الانقطاع عن هذه الدنيا وكل رغبة نفسانية. لقد أشرنا مسبقًا لهذا الموضوع الهام في فصول سابقة. يبدو بكل جلاء من مطالعة "لوح السيّاح" بأن ما كان لأصحاب حضرة بهاءالله، نظرًا لقربهم من شخصه، أن يظلوا مخلصين لأمر الله لو لم يستطيعوا أن يتخلصوا تمامًا من شرور النفس. فأي أثر للتعظيم الذاتي، مهما صغر، كان قاتلاً بالنسبة لهم. وفي محضره المبارك لا يمكن لغير محوية الذات التامة أن تبقى.

كان بين تلاميذ حضرته من استطاع أن يخضع أنانيته. استطاع أولئك بأقوالهم وأفعالهم أن يبرهنوا على محوية ذاتهم عندما يكونون وجهًا لوجه أمام مولاهم. أولئك أصبحوا العمالقة الروحانيين لهذه الدورة، وبإيمانهم أفاضوا على أمر الله بريقًا لا يدركه الزوال. بشأن رجال كهؤلاء، في فترة بغداد، يكتب النبيل ما يلي:

كم من ليلة لم يزد فيها طعام العشرة منهم عن حفنة من التمر تُشترى بفلس. ولم يكن أحدهم يدري على وجه التحقيق شيئًا عمّا يجده في بيته من الأحذية والعباءات والملابس أهي ملكه هو أم ملك غيره. ولكن كل من ذهب إلى السوق ادعى أن الحذاء الذي ينتعله حذاؤه، وكل من يحظى بمحضر حضرة بهاءالله يؤكد أن الثوب الذي يلبسه هو ثوبه! أمّا أسماؤهم فقد نسوها، أمّا قلوبهم فقد فرغت من

كل شيء إلاّ ذكر محبوبهم وتقديسه! فآه آه لهاتيك الأيام الغوالي ولحلاوة تلك السويعات العجيبة.

أمّا أن قليلاً من النفوس تمكنوا من بلوغ امتياز كهذا، والعروج إلى عوالم الانقطاع، والتواضع أمام مولاهم، ليعتبر بشرى طيبة للبشرية التي قُدر لها، في الوقت المناسب، أن تحذو حذوهم. في هذا اليوم لا يمكن لأتباع حضرة بهاءالله الفوز بلقائه في هذا العالم. وعليه فإن الامتحانات التي اتصلت بصفة خاصة بشخصه لم تعد في الظاهر تؤثر فيهم. إلاّ أن متطلبات الإيمان والسبيل نحو حضرة بهاءالله باق دون تغيير. فيتعين على المؤمن اليوم، كما كان في أيام حضرة بهاءالله، أن ينقطع عن كل الشؤون الأرضية ويطهر قلبه من إشارات النفس والهوى وحب الذات، من أجل أن يتمكن من التقييم الحقيقي لمقام حضرة بهاءالله المذهل، فيصبح خادمًا لائقًا لأمره. لو قصّر وفشل في عمل ذلك فإنه، ولو لم يواجه نفس المخاطر (الامتحانات) التي أحاطت أصحاب حضرة بهاءالله (في أيامه)، لا محالة فإنه سيشعر بشيء من الشك في أعماق قلبه تجاه أمر الله وقد يعاني فكريًا من تناقضات شديدة. فمع أنه قد يعترف بحضرة بهاءالله كمظهر إلهي وقد يكون مطلعًا إطلاعًا جيدًا على آثاره الكتابية، لكنه لن يكون بمقدوره التمتع بذاك اليقين الذي يُكسب الإنسان صفات إلهية ويمنحه قناعة وسكونًا وسعادة دائمة.

إن اكتساب إيمان حقيقي لهو أعظم منجزات الإنسان. فالإيمان يمنح الإنسان قوى لا تدانيها أية وسيلة أو مصدر دنيوي. وبقوة إيمانهم استطاع المؤمنون التغلب على عوائق كانت تبدو كأداء وحققوا انتصارات خالدة لأمر حضرة بهاءالله. لأجل أن يحصل المرء على الإيمان يتوجب عليه إزالة كل أثر للوهم والهوى. لنتفحص السبيل لبلوغ هذه الغاية العليا ونتحرى المآزق والعوائق الكثيرة التي تعترض الروح في رحلة البحث.

هناك مركزان لقوى هائلة داخل الإنسان. أحدهما الدماغ، مركز الذكاء والتفكير ومخزن معلوماته ودراساته. بواسطة هذه المقدرة يمكن أن يُظهر الإنسان القوى الفريدة العاقلة التي تميزه عن الحيوان. إن العقل أعظم هبة من الله للإنسان. لكن الإنسان، بناء على كونه صاحب إرادة ذاتية حرة، قد يدفعه عقله إلى الإيمان والاعتقاد بالله، أو إلى الإلحاد. المركز الآخر هو القلب (الفؤاد) وهو مصدر الدفء والحب. إن قلب الإنسان يهوى الدنيا ويحب ذاته. لكنه في ذات الوقت هو المنزل الذي يحتضن صفات الله ويعكسها. ويتفضل حضرة بهاءالله قائلاً:

"يا ابن الوجود
فؤادك منزلي، قدّسه لنزولي..."(١٠)

إن شرارة الإيمان تظهر أول ما تظهر في فؤاد الإنسان. لكن هذا لا يمكن أن يحدث إلاّ عندما يتحرر القلب من التعلّق بشؤون الدنيا. يعلن حضرة بهاءالله في "الكلمات المكنونة":

"يا ابن التراب
قدّرت لك جميع ما في السموات والأرض! إلاّ القلوب فقد جعلتها منزلاً لتجلّي جمالي وإجلالي، وأنت قد تركتَ منزلي لغيري. فما أراد ظهور قدسي في كل زمان أن يقصد مكانه إلاّ وجد فيه غيره ورأى فيه غريبًا، فأسرع إلى حرم المحبوب في اللامكان، ومع ذلك سترتُ أمرك ولم أفضح سرك ولم أرضَ أن أخجلك."

لقد خلق اللهُ الإنسانَ بكيفية بحيث يكمل كل من هذين المركزين أحدهما الآخر. فالعقل بدون قلب مستنير بالإيمان لا يمكنه اكتساب المقدرة على التحري، أو اللغة ليفهم ويعقل بها حقيقة أمر الله. مثل ذلك مثل العين الباطنية المحرومة من النور فهي عاجزة عن استكشاف عالم الروح. بدلاً من ذلك فهي تنمي قدراتها في المجالات المادية وترفض بطبيعة الحال فكرة أو مفهوم الله والدين. وهكذا تصبح مانعًا بالغ الفاعلية لحصول المرء على نعمة الإيمان. في ظروف كهذه يمتلئ القلب بحب الدنيا وحب ذاته، لأن من مميزات القلب أن يحب. فإذا لم يسمح له بأن يحب، فإنه

ينقلب ليحب ذاته وممتلكاته الدنيوية. وهذا هو أحد معاني "الغريب" الذي يشير إليه حضرة بهاءالله في "الكلمات المكنونة":

"يا حبيبي بالقول
تأمّل قليلاً: أسمعتَ قط أن الحبيب والغريب يجتمعان في قلب واحد؟ فاطرد الغريب حتى يدخل الحبيب منزله."

للحصول على الإيمان يجب على المرء أولاً إجلاء "الغريب" من قلبه. وعلى قدر نجاحه في ذلك يكون اكتسابه للإيمان. فعند حدوث شرارة الإيمان داخل القلب يجب رعايتها وتنميتها لتصبح لهبًا. وإلاّ قد تنطفئ بسبب التعلق بالدنيا. مثلاً حينما يصل شخص إلى مستوى من الوعي بحيث يعترف بحضرة بهاءالله على أنه مظهر إلهي، فإن قلبه يصبح لاقطًا لأنوار دين الله لهذا العصر. وإذا انغمس منذ البداية ببحر ظهور حضرة بهاءالله، بقراءة كتاباته يوميًا ليس فقط من أجل توسيع المعلومات بل لتغذية الروح، وبمعاشرة الأخيار، والقيام على خدمة حضرته بإخلاص وانقطاع، فإنه قد يزداد إيمانًا باطراد ويصبح نفسًا نورانيًا متحمسًا. وقد يحصل على تفهّم أعمق للآثار المباركة ويصل إلى مستوى من الوعي بحيث أن عقله وقلبه يعملان معًا بانسجام. إن مؤمنًا كهذا سيجد أخيرًا أن ليس ثمة تناقض بين تعاليم حضرة بهاءالله

وبين تفكيره. إضافة لذلك سوف يكتشف في كلمات حضرة بهاءالله أزيد من حكمة بينما يقرّ في الوقت نفسه بمدى محدودية عقله وقصوره.

لكن إذا فشل المؤمن، بعد اعترافه بحضرة بهاءالله، في مواصلة السير في هذا السبيل، فقد يجد نفسه بعد قليل في تناقض مع عدة نواح من دين حضرة بهاءالله. فقد لا يستطيع فكره تفهّم الحكمة وراء كثير من تعاليمه، بل قد يرفض بعضها ثم أخيرًا يفقد إيمانه نهائيًا. يجاهد بعض الناس سنوات في سبيل التغلب على هذه المشكلة توقًا لترسيخ إيمانهم. غالبًا ما يمكن لمثل هذا الشخص أن يتلقى العون لبلوغ تفهّم حقيقي لأمر الله من قبل أولئك الذين وصلوا لمستوى الإيمان الحقيقي بحضرة بهاءالله وانقطعوا عن هذا العالم.

إذا ما فشلت كل الوسائل، فالعلاج الوحيد للشخص الذي لا يزال فيه بصيص من شعلة الإيمان، ولكن لديه شكوك في أمر الله، هو أن يقرّ بأن علم حضرة بهاءالله منبعث من الله، وأن يسلّم مشاعره وأفكاره له تسليمًا تامًا. حالما يسلّم نفسه بهذه الكيفية ويستقيم عليها بإخلاص وأمانة، تتفتح أمامه أبواب الفضل الإلهي ويصبح قلبه محلاً لاستلام نور العرفان الحقيقي. وسوف يكتشف في وقت ما في حياته، فطريًا أو بالصلاة والتأمل، الجواب عن كل إشكالاته واعتراضاته. بل إن كل أثر من التناقضات سيزول من فكره. علاوة على ذلك سوف يتفهّم آنيًا ما استعصى عليه وحيره من تلك

المبادئ والتعاليم وسيجد كثيرًا من الأسرار مكنونة في كلمات حضرة بهاءالله، أسرارًا لم يعها إطلاقًا من قبل.

إن كلمات حضرة بهاءالله التالية، في إحدى "الكلمات المكنونة"، تبيّن كيف أن الإنسان لا يمكنه بلوغ عرفان ظهوره إلاّ إذا فوض أمره لله:

"يا ابن التراب
كن أعمى ترَ جمالي، وكن أصمَّ تسمع لحني وصوتي المليح، وكن جاهلاً يكن لك من علمي نصيب، وكن فقيرًا تغترف من بحر غَنائي الخالد قدرًا لا زوال له، أي كن أعمى عن مشاهدة غير جمالي وكن أصمَّ عن استماع كلام غيري، وكن جاهلاً بسوى علمي حتى تدخل ساحة قدسي بعينٍ طاهرةٍ وقلبٍ طيبٍ وأذنٍ نظيفةٍ."

في الرواية التالية عن حياة ميرزا أبو الفضل، العلاّمة البارز والمُدافع الشهير عن أمر الله، شهادة على أن قراءة الكلمة الإلهية بعين العقل فقط يمكن أن تضل (وتبعد عن الإيمان). فيروي كيف أنه عقب اتصاله بالمؤمنين (البهائيين) أعطوه "كتاب الإيقان" ليقرأه. لكنه قرأه من موقف استعلاء فكري ولم يتأثر به. حتى أنه علّق (في حينه) بأنه

لو كان "كتاب الإيقان" برهان ادعاءات حضرة بهاءالله، فإنه نفسه كان باستطاعته تأليف كتاب أفضل منه.

كان آنذاك مديرًا لمدرسة دينية في طهران. في اليوم التالي جاءت امرأة ذو مكانة بارزة إلى المدرسة وطلبت من بعض طلابها تحرير رسالة هامة لها.[10] لكن الطلاب أحالوها إلى ميرزا أبو الفضل مشيرين لها بأنه كاتب بارز، وسيد البلاغة ورجل لا يبارى في فن التأليف الأدبي. أمسك ميرزا أبو الفضل بالقلم ليكتب، لكنه وجد نفسه غير قادر على تسطير الجملة الافتتاحية. ورغم جهد متواصل لم يتحرك قلمه. ظل يحاول دون جدوى بينما راح قلمه يعبث برسم خطوط في زاوية الورقة وحتى فوق ظفر إصبعه، إلى أن أدركت المرأة بأن الكاتب القدير لم يقدر أن يكتب. نهضت لتغادر المكان وقد فقدت صبرها فقالت لأبو الفضل مستهزئة: 'إذا كنت نسيت كيف تكتب رسالة بسيطة، لِمَ لَم تقل ذلك بدلاً من إبقائي هنا منتظرة بينما أنت تخطّ خطوطًا لا معنى لها؟'

يقول ميرزا أبو الفضل أنه أحس بخزي وعار إثر تلك الحادثة، ثم تذكر فجأة كلماته التي علق فيها الليلة السابقة بخصوص مقدرته على تأليف كتاب أفضل من "كتاب

([10]) كان مألوفًا في تلك الأيام أن يدفع الناس مبلغًا بسيطًا من المال لرجل متعلم ليحرّر لهم الرسائل. أمّا المتطلبات الأساسية لكتابة رسالة جيدة فكانت حسن الإنشاء وجمال الخط.

الإيقان". لذلك فإن قلبه الطاهر جعله يعترف بأن تلك الحادثة لم تأت إلاّ ردًا واضحًا على موقفه المتغطرس حيال ذلك الكتاب المقدس.

على أية حال استغرق اقتناع ميرزا أبو الفضل بأحقية أمر حضرة بهاءالله عدة سنين. وصل خلالها إلى مرحلة بحيث آمن بأمر الله إيمانًا عقليًا، دون قناعة قلبية. الشيء الوحيد الذي جعله يعترف بأحقية أمر الله بعد صراع طويل هو تسليمه نفسه وما وُهب من معارف وملكات عقلية إلى الله. ذات ليلة قصد حجرته وناجى الله مصليًا والدموع تنهمر من عينيه، سائلاً الله عسى أن يفتح أبواب قلبه. عند الفجر شعر بغتة بأن قلبه قد غمر بالإيمان بحيث لن يبالي لو فدى حياته في سبيل حضرة بهاءالله.[11] نفس الشخص الذي قال مرة أنه يستطيع تأليف كتاب أفضل من "كتاب الإيقان"، طالع الكتاب عدة مرات من خلال عين الإيمان فوجده بحرًا من العرفان لا حدود له. وفي كل مرة يقرأه يجد فيه لئالئ حكمة جديدة مدخرة فيه، ويكتشف أسرارًا جديدة لم تخطر على باله من قبل.

إن الإيمان يتأتى للإنسان من خلال تسليمه لله. ذلك لأن تسليم النفس بكل مكتسباتها يحرر الروح من تعلقها بهذا العالم الفاني. وبذلك يُطرد "الغريب" خارج القلب ويمكّنه من إدخال "الحبيب" إلى حرمه. يصرح حضرة بهاءالله:

([11]) في المجلد التالي من الكتاب سيرة لحياة ميرزا أبو الفضل.

"يا ابن الإنسان
كن لي خاضعًا لأكون لك متواضعًا..."

وفي فقرة أخرى يتفضل قائلاً:

"يا ابن البشر
إن تحب نفسي فاعرض عن نفسك وإن ترد رضائي فاغمض عن رضائك لتكون فيّ فانيًا وأكون فيك باقيًا."

"كتاب ظهور حضرة بهاءالله، أديب طاهرزاده، المجلد ٢"